

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض: دراسة في

الأثر الصحي والاجتماعي

Demographic changes in Ottoman Algeria in light of the spread of epidemics and diseases: a study of the health and social impact

شلفوم أسماء *

جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي

chelghoum.asma@univ-oeb.dz

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025/07/31	2025/07/24	2025/04/23

الملخص:

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني سوء للأحوال الاجتماعية واكبه سوء للأحوال الصحية والمعيشية نظرا للتغيرات الديمغرافية التي كانت قد عرفت البلاد، اذ تطورت العديد من المدن ونمت بسرعة كبيرة، فكان ان زادت حاجيات السكان للغذاء والخدمات الصحية، خاصة بعدما عرفت ظهور للأمراض وأوبئة كالتطاعون بالمدن الكبرى والأوبئة المنقولة عن طريق الموانئ وكذا الفيضانات وفترات الجفاف التي عرفت البلاد من جهة، ومن جهة أخرى لا مبالاة الحكام العثمانيين للجانب الصحي بحيث لم يتخذوا أي اجراء وقائي ضد تنامي تلك الأمراض ليرجع هذا بالسلب على الوضع الديمغرافي خاصة أواخر القرن 18م، حيث تناقص عدد سكان المدن والارياف، وعلى هذا الأساس نحاول في ورقتنا البحثية هذه التطرق لإشكالية جوهرية: فيما تمثلت انعكاسات انتشار الأمراض والأوبئة على الوضع الديمغرافي بالجزائر العثمانية ؟

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض...

يهدف المقال إلى دراسة تأثير انتشار الأمراض والأوبئة خلال العهد العثماني في الجزائر على الوضع الديموغرافي، وذلك من خلال تسليط الضوء على الظروف الاجتماعية والصحية المتدهورة، والإهمال العثماني في اتخاذ الإجراءات الوقائية.

النتائج:

- ✓ تدهور الأحوال الصحية والمعيشية نتيجة التغيرات الديموغرافية ونمو المدن السريع.
 - ✓ إنتشار الأمراض مثل الطاعون بسبب المستنقعات، الموانئ، الفيضانات، وفترات الجفاف.
 - ✓ غياب التدخل العثماني لمواجهة هذه الأوبئة زاد من سوء الوضع الصحي.
 - ✓ إنخفاض عدد السكان في المدن والأرياف، خاصة في أواخر القرن 18م.
 - ✓ تأكيد العلاقة بين إنتشار الأوبئة والتغيرات السكانية السلبية في الجزائر العثمانية.
- الكلمات المفتاحية:** التغيرات الديمغرافية؛ الأوبئة؛ الطاعون؛ الجفاف؛ الإجراءات الوقائية.

Abstract:

AL'époque ottomane, l'Algérie connaissait de mauvaises conditions sociales, accompagnées de mauvaises conditions de santé et de vie en raison des changements démographiques que le pays avait connus, car de nombreuses villes se développaient et grandissaient très rapidement, de sorte que les besoins de la population en nourriture et en services de santé augmentaient, en particulier après avoir connu l'apparition de maladies et d'épidémies telles que la peste due à la propagation des marécages dans les plaines côtières, autour des grandes villes et des épidémies transmises par les ports, ainsi que des inondations et des périodes de sécheresse que le pays a connues d'une part, et d'autre part d'autre part, l'indifférence des dirigeants ottomans à l'aspect sanitaire, car ils n'ont pris aucune mesure préventive contre la croissance de ces maladies, en raison de cela affectant négativement la situation démographique, en particulier à la fin du XVIIIe siècle après JC. Là où la population des villes et des zones rurales a diminué, et sur cette base, notre mémoire de recherche est venu aborder un problème fondamental représenté dans : Quelles ont été les répercussions de la propagation des maladies et des épidémies sur la situation démographique en Algérie ottomane ?

Key words: demographic changes; epidemics; plague; drought; preventive measures.

مقدمة:

شهدت الجزائر خلال فترة التواجد العثماني، الممتدة من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، تحولات ديموغرافية ملحوظة، حيث عرفت العديد من المدن نمواً سريعاً وتوسعاً حضرياً. غير أن هذا التطور الحضري لم يصاحبه تحسن في الأوضاع الصحية والمعيشية، مما أدى إلى ظهور سلسلة من الأوبئة الفتاكة، خاصة خلال مطلع القرن الثامن عشر، أين تفاقمت حدة الأمراض والمجاعات. وكان مرض الطاعون من أكثر الأوبئة انتشاراً وتأثيراً، حيث خلف انعكاسات سلبية عميقة على الوضع الديموغرافي في البلاد. ومن هنا، جاءت هذه الورقة البحثية لمعالجة الإشكالية التالية: ما هي انعكاسات انتشار الأمراض والأوبئة على الوضع الديموغرافي في الجزائر خلال العهد العثماني؟

أهداف الدراسة:

1. تحليل العوامل التي ساهمت في تدهور الأوضاع الصحية والمعيشية.
2. إبراز دور الأوبئة، وعلى رأسها الطاعون، في التأثير على التوازن السكاني.
3. فهم العلاقة بين الإهمال الصحي من طرف الإدارة العثمانية وتفاقم الأزمات السكانية.

المنهجية المعتمدة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع الأوضاع السكانية والصحية للجزائر خلال الحقبة العثمانية، بالاستناد إلى المصادر التاريخية والمعطيات الديموغرافية المتوفرة، وتحليل أسباب انتشار الأوبئة ونتائجها على المجتمع الجزائري آنذاك.

1- الوضع الديموغرافي بالجزائر خلال العهد العثماني

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض...

تميز الوضع الديمغرافي في الجزائر خلال الفترة العثمانية بعدم الاستقرار من حيث عدد السكان وكثافتهم، وذلك نتيجة للأوضاع المعيشية والظروف الصحية. فقد قُدِّر عدد السكان في القرن السادس عشر بحوالي 70 ألف نسمة، بينما أشار الجاسوس بوتان¹ إلى أن عدد السكان قبل الاحتلال كان يُقدَّر بنحو 73 ألف نسمة. ومع حلول سنة الاحتلال، انخفض عدد السكان إلى 35 ألف نسمة².

وبناءً على ذلك، شهد النمو الديمغرافي في الجزائر عدة مراحل، نستعرضها فيما يلي:

1.1- مرحلة النمو المرتفع

شهدت الجزائر خلال فترة الحكم العثماني مرحلة من ارتفاع ملحوظ في النمو الديمغرافي، وذلك نتيجة لتحسن نسبي في الظروف الأمنية والاقتصادية، مما ساعد على استقرار السكان وزيادة عددهم، خصوصاً في المناطق الحضرية. كما كان للهجرات وتوافد الأتراك دور في تنوع البنية السكانية. وتعتبر هذه المرحلة أساسية لفهم تطور الوضع الديمغرافي في تاريخ الجزائر.

1.2.1- توافد العناصر الأندلسية:

تعود البدايات الأولى لوجود الأندلسيين بالمدينة إلى القرن التاسع هجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي، من خلال موجات الهجرة³ التي حدثت بعد سقوط آخر معاقل الأندلس في عام 1492 بيد الإسبان، وقد عرفت عدداً من المهاجرين من مختلف شرائح المجتمع (أبناء الشعب - البسطاء - أحفاد الملوك - الوجهاء - أصحاب الصنائع - وأصحاب العلم) على شواطئ المغرب الإسلامي طلباً للحماية⁴.

يشير أندريه ريمون إلى أن الجالية الأندلسية كان لها دور بارز في الجزائر، حيث زاد عدد أفرادها بشكل ملحوظ خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، جاء ذلك

بعد أن طرد المغاربة نهائياً من إسبانيا نتيجة القرارات التي أصدرها الملك الإسباني فيليب الثالث (1596-1621م) في عام 1609. في تلك السنة، لجأ حوالي 40 ألف شخص إلى تونس من بين 80 ألفاً غادروا إسبانيا، بينما استقر جزء آخر في الجزائر، حيث ساهموا في تعزيز النشاط الاقتصادي للبلاد، خاصة في مجالات الاستثمار الزراعي، كما لعبوا دوراً مهماً في تنشيط الحركة التجارية، لا سيما في مجالات نسج الحرير وصناعة البلاطات الخزفية وأعمال البناء⁵، ونظرًا للتدفق الكبير للأندلسيين إلى الجزائر، تمكن أفراد الجالية الأندلسية من تكوين ثروات ضخمة بفضل نشاطهم الاقتصادي، مما ساهم في تعزيز فعالية اقتصاد إيالة⁶ الجزائر، كما قدمت هذه الفئة خدمات إدارية للعثمانيين، حيث اشتهروا بتحصيل الضرائب وجمع موارد الخزينة وتسجيلها، وبفضل خبرتهم المالية، انخرطوا أيضًا في أعمال القرصنة والنخاسة وافتداء الأسرى⁸⁷، أدى هذا الوضع إلى حدوث اكتظاظ كبير، مما دفع العديد من السكان إلى النزوح خارج أسوار المدينة والاستقرار في المرتفعات المطلة على باب الوادي، كما زادت الحاجة إلى المساكن في المناطق الحضرية، مما جعل التوسع العمراني ضرورة ملحة، وكان قد اختار الأندلسيون المواقع المرتفعة بالقرب من القصبية، حيث يمكن رؤية البحر بوضوح. ونتيجة لذلك، ازدادت كثافة المباني على التلال والمرتفعات، وتم بناء المنازل على السفوح وفي أماكن الحدائق⁹.

2.2.1- توافد العنصر التركي

يعود توافد الجيش الانكشاري في الجزائر الى عام 1520م، حينما بعث السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520) الى خير الدين بربروسة¹⁰ حوالي ألفين من الانكشارية، ثم أضاف لهم بعد ذلك حوالي أربعة الاف من المتطوعين مقابل حصولهم على حقوق مالية وامتيازات معتبرة¹¹ وتعتبر هذه العملية من أهم المميزات التي ربطت الجزائر بالباب العالي، خصوصا وأن الجزائر كانت بأمس الحاجة لعملية التجنيد لتدعيم قواتها العسكرية التي كانت تتصدى للاعتداءات الخارجية المتكررة والقوى الداخلية المعارضة¹²

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض...

وقد استمر مجيء الجنود إلى الجزائر حتى أوائل القرن التاسع عشر، إذ كانت سلطات الجزائر ترسل موفدين عنها لتجنيد متطوعين في جيشها، أو تستخدم وكلاء عنها لهذا الغرض¹³.

كان العثمانيون معروفين بتنوع أصولهم وأجناسهم، حيث ضموا الأتراك، الأرناؤوط، البشناق، الأكراد، الإغريق، البلغار، البغدان، التشيك، الأرمن، وحتى التتار. ورغم هذا التنوع، شكلوا مجتمعاً موحدًا تميز بلغة تركية ومذهب حنفي¹⁴، لم تكن هذه الفئة منعزلة اجتماعيا بحكم علاقات المصاهرة التي جمعتها مع العناصر الأخرى¹⁵.

3.2.1- البرانية:

شهدت مدينة الجزائر ظاهرة تدفق سكان المناطق الداخلية إليها من الجبال، مشابهاً لما حدث في مدن عربية أخرى مثل بغداد وتونس وصفاقس، وقد تميزت تركيبة الوافدين إلى مدينة الجزائر بتنوع كبير، حيث جاء العديد منهم من المدن القريبة وما حولها، مثل البلدية¹⁶، كما نزح عدد من الأشخاص من مناطق متيجة والقليلة وشرشال ومليانة والمدية، بالإضافة إلى آخرين من زمور ومنطقة سباو وفليسة، ووصل آخرون من بجاية وقسنطينة ووهران ومستغانم ومازونة ومعسكر¹⁷.

2.1- مرحلة الانخفاض والتراجع السكاني

عرفت الجزائر مع نهاية القرن الثامن عشر تراجع في تعداد السكان إلى حوالي ثلاثين ألف نسمة إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830)¹⁸، ويعود السبب الرئيسي وراء هذا التراجع إلى انتشار الأمراض والأوبئة، بالإضافة إلى التدهور الاجتماعي الناتج عن انتقال العدوى من الدول المجاورة، نظرًا لارتباط الجزائر ببلدان البحر الأبيض المتوسط، وانفتاحها على مناطق السودان، وعلاقاتها التجارية مع أوروبا، فضلاً عن ارتباطها الروحي بالمشرق الإسلامي، ومن بين الأمراض التي انتشرت بشكل كبير في تلك الفترة، كان وباء الطاعون، الذي أُعتبر من أخطر الأمراض التي عانت منها مختلف فئات المجتمع الجزائري

خلال العهد العثماني، حيث أصاب أيضًا جميع العناصر الأجنبية المقيمة في البلاد، وقد تكرر ظهور هذا الوباء، مما أدى إلى تراجع النمو الديمغرافي¹⁹ إذ تناقص عدد السكان وبالتالي تناقصت اليد العاملة²⁰ تاركاً خلافاً في البنية الاجتماعية الجزائرية²¹.

3- الأمراض والأوبئة وانعكاساتها على الوضع الديمغرافي بالجزائر العثمانية

1.1- الأوبئة (وباء²² الطاعون):

الطاعون (LA Peste) هو مرض معدٍ تسببه جرثومة اليارسين (Bacille de Yersin). وقد أشار الأطباء إلى أن سبب ظهور هذه الجرثومة يعود إلى التلوث وتسمم الهواء الناتج عن الروائح الكريهة لجثث الجراد الميت المتعفنة. يُصنف الطاعون إلى ثلاثة أنواع:

1. الطاعون الخمجي (Peste septicemique)، حيث تتواجد جرثومة الطاعون في الدم.

2. الطاعون الحيواني (Peste bubonique)، الذي يظهر على شكل بقع صلبة على الجلد، ويعرف في الجزائر بالولسيس، ويعتبر من أخطر الأنواع، حيث يؤدي إلى وفاة 70% من سكان المنطقة المصابة.

3. الطاعون الرئوي (Peste pulmonaire)، حيث تتواجد الجرثومة في الرئتين، ويظهر هذا النوع عادة خلال الأشهر الباردة، على عكس الأنواع الأخرى التي تظهر في الأيام الحارة²³.

تعود الأسباب الرئيسية لانتشار هذه الأمراض إلى التنقلات البحرية، حيث كانت سفن الحجاج القادمة من مناطق مصابة بالداء تصل إلى الموانئ الجزائرية. بينما اعتبر البعض أن المرض كان مستوطناً في البلاد، وأن الجراثيم القادمة من المغرب كانت أكثر خطورة من تلك

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض...

القادمة من المشرق. في حين ربط آخرون ظهور هذه الأمراض بالاضطرابات المناخية مثل الجفاف والفيضانات²⁴، كما كانت الأسواق أحد الأسباب الرئيسية لانتشار الأمراض، حيث ساهمت في تبادل البضائع بين الناس. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك احتكاك بين المصابين، أو إنتقال العدوى عبر الفرق العسكرية التي كانت تنقل الأمراض من مناطق مصابة إلى أخرى سليمة، خاصة خلال الحملات العسكرية التي كانت تهدف إلى إخضاع السكان أو جمع الضرائب، على سبيل المثال، الطاعون الذي إنتشر بواسطة الفرق العسكرية في جنوب بايليك قسنطينة عام 1786، كما لعبت المراسلات دورًا في هذا الانتشار، حيث تسببت الرسائل الإدارية والسياسية والدبلوماسية في نقل الطاعون من منطقة إلى أخرى، من خلال لمس الرسائل المغلفة المصنوعة من الساتان أو قماش الأطلس²⁵.

يمكن الإشارة أيضًا إلى أن جهل معظم الناس بأبسط قواعد الصحة، وعدم إتباع سياسة وقائية تعتمد على تحسين الأوضاع في البلاد من خلال الحفاظ على النظافة وتطوير المستشفيات المنتشرة، بالإضافة إلى نقص الأدوية، حيث تكاد البلاد تخلو من الصيدليات أو متاجر بيع الأدوية، مع وجود صيدلية واحدة فقط في مدينة الجزائر، كل ذلك ساهم في تفاقم الأمراض وزيادة انتشارها²⁶، من ناحية أخرى، يتضح أن عدم اهتمام العثمانيين بالشؤون الصحية، بما في ذلك غياب المستشفيات، دفع الجزائريين إلى اللجوء إلى الزوايا التي كانت تستقبل العجزة والمرضى وتقوم بتقديم العلاج بالأعشاب المعروفة، مستندي في ذلك إلى ما كتبه ابن سينا، كما كانوا يستخدمون الجن والأرواح في معالجة مرضاهم، أما بالنسبة للجراحة، فكان الحلاقون هم من يقومون بها لعدم وجود أطباء، حيث كانوا يعتمدون على طريقة الكي، ولم يكن في الجزائر سوى مستشفى واحد، وكان مخصصًا للنصارى²⁷.

انتشر وباء الطاعون في معظم الدول المطلة على البحر المتوسط، بما في ذلك الجزائر. ويعود مصدره الأصلي إلى المدن التركية، التي كانت تعتبر مراكز جذب لمختلف الأجناس،

حيث إنتقل هذا الوباء من المدن الساحلية التركية إلى بيروت والإسكندرية، ثم إلى دول المغرب العربي²⁸ بشكل عام، والجزائر بشكل خاص، وقد تفشى الوباء بشكل خاص في منطقة الساحل، التي تشمل مدينة الجزائر وضواحيها، حيث بلغت نسبة الانتشار 53.8%، في حين وصلت النسبة في المنطقة الشرقية (قسنطينة) إلى 26%، وفي المنطقة الغربية (وهران) إلى 14.9%²⁹.

خلف هذا المرض آثارًا خطيرة. ففي عام 1542، اجتاحت وباء الطاعون مدينة وهران خلال حكم حسن آغا، مما أسفر عن خسائر فادحة دفعت الإسبان إلى مغادرة المدينة، واستمر الوباء حتى عام 1545، مما أدى إلى حدوث مجاعة كبيرة. نتيجة لذلك، قام حسن بن خير الدين في عام 1549 بإنشاء بيت مكون من خمس غرف مخصص للعلاج من الأمراض المختلفة، وقد تم ترميمه في عام 1662، بالإضافة إلى بناء أربع بيوت أخرى للعلاج، فضلاً عن إنشاء صيدلية لتوفير الأدوية اللازمة للمستشفيات³⁰، وقد ذهب ضحية هذا الوباء أربع باشاوات من بينهم صالح رايس³¹.

عرفت الجزائر وباءً في عام 1548 أدى إلى هلاك السكان، وكان من بين ضحاياه خير الدين بربوس. وفي عام 1554، تعرضت البلاد مرة أخرى لوباء الطاعون، الذي كان أكثر فتكًا من الوباء السابق واستمر لمدة ثلاث سنوات، مما أسفر عن وفاة ثلث السكان، فقد انتشر هذا الوباء في وسط المدينة وحتى في ثكنات الجنود. وتشير الدراسات إلى أن سكان الريف كانوا هم السبب في نقل الوباء إلى المناطق الداخلية³²، ومع حلول منتصف القرن السادس عشر، تفاقم وباء الطاعون مما أدى إلى زيادة عدد الضحايا، لكنه شهد تراجعًا في عام 1582، وتعتبر الفترة من 1666 إلى 1673 هي الفترة التي إنتهى فيها وباء الطاعون بشكل كامل، ومع ذلك، عادت الإيالة لتواجه طاعونًا خطيرًا قادمًا من إيالة تونس عبر البر، حيث وصل إلى وهران بواسطة بحارة إسبانيين، ثم إنتشر في المغرب الأقصى مما تسبب في وفاة العديد من السكان، ففي عام 1787، بلغ عدد وفيات وباء الطاعون

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض...

بين المسلمين ما بين 200 إلى 240 شخصًا يوميًا، بينما كان عدد الوفيات بين اليهود والمسيحيين يصل إلى 700 شخص. بناءً على ذلك، اضطر الباي محمد الكبير³³ إلى اتخاذ إجراءات عاجلة إلى مغادرة وهران والإقامة بسهل " ملاتة " قرابة ثلاثة أشهر إلى أن زال المرض، سمي الوباء خلال هذه الفترة (1786-1787م) بالوباء الكبير نظرا لبقائه لفترة طويلة، إذ وصل عدد الأموات أحيانا 500 جنازة كل يوم، وقيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية³⁴، يذكر ناصر الدين سعيدوني أن الأرياف خلال وباء 1787 كادت أن تفتقر والمدن تناقص عدد سكانها كثيرا، إذ تراجع عدد سكان مدينة الجزائر إلى خمسين ألف نسمة بعد أن أودى بحوالي 16.821 نسمة من اهاليها³⁵، ليستمر هذا الأخير بالجزائر إلى سنة (1211هـ-1796-1797م)³⁶، وتعتبر الفترة من نوفمبر 1817 إلى نهاية أكتوبر 1818 الأكثر انتشارا للمرض حيث بلغ عدد الوفيات 6095 حالة عام 1817، وعليه كان وباء 1817 أهم هذه الأوبئة الذي ظهر مع قدوم سفينة عثمانية حاملة الحجاج من الإسكندرية ودام ثلاث سنوات، وعم جميع أنحاء البلاد، وكان من شديد الانتشار فنذكر على سبيل المثال أن مدينة وهران كانوا يموتون في الشوارع، أما في مدينة الجزائر فهلك حوالي 13.330 شخصا في الفترة من 21 جوان 1817 إلى 6 سبتمبر 1818، وهي الفترة التي بلغ فيها المرض أوجه، وقد انتشر هذا المرض ليشمل المناطق الجبلية مثال على ذلك منطقة جبال جرجرة انتقلت إليها العدوى عن طريق جماعة من الأهالي لجأت إلى هناك، وفي عام 1818 ارتفع عدد الوفيات إلى 6844 حالة وفاة³⁷، ولم تنقص حدة هذا الطاعون إلا سنة 1822م³⁸.

لم يكن الطاعون الوباء الوحيد الذي يهدد السكان إنما كانت هناك أمراض عرفها المجتمع الجزائري كالحُمى حيث أشار بيربروجر³⁹ أن معالجتها كانت تتم من خلال أكل الخبز المجفف، واللحم المملح بالإضافة إلى شرب الماء العذب الذي يساعد على إخراج العرق لتسهيل عملية الشفاء⁴⁰، وأمراض الجهاز التنفسي ففي الفترة الممتدة بين 1840 إلى 1857

تم إحصاء حوالي 1425 حالة وفاة بسبب هذا المرض، وحوالي 13 حالة وفاة بسبب الاختناق، في حين أعطى السيد ميتشل نسبة 1882 حالة وفاة بسبب أمراض الصدر المختلفة من أصل 13872 حالة وفاة من جميع الأمراض⁴¹.

شهدت الجزائر منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى فترة الاحتلال الفرنسي عدة أوبئة، مثل الطاعون والحمى وأمراض الجهاز التنفسي، بالإضافة إلى ذلك، ظهرت ظواهر أخرى مثل زحف الجراد والجفاف، مما أدى إلى القحط والغلاء وانتشار المجاعات⁴². كل هذه العوامل أسفرت عن تراجع ديمغرافي ملحوظ، كان له تأثير سلبي واضح على سكان الريف والإنتاج الزراعي. هذا التراجع أدى بدوره إلى انخفاض الضرائب المفروضة على هذا الإنتاج، والتي كانت تُقرض أساسًا على أفراد الجماعات الرعوية الخاضعة⁴³.

وعليه يمكن القول أن مرض الطاعون من بين الأمراض التي وقفت السلطات المحلية عاجزة أمامه، إذ عجزت عن أخذ أية تدابير وقائية له، لما كان من اختلاف بين رجال الدين فيما يتعلق بمعاملة المصابين ومعالجتهم⁴⁴، فمنهم من دعى إلى الاحتراز⁴⁵ معتمدا على قوله تعالى: "وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"⁴⁶، ومنهم من يدعوا إلى التوكل على الله وعدم الاحتراز معتمدين على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾⁴⁷ وقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾⁴⁸، وعلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: "لا يغني حذر من قدر"⁴⁹، وكان قد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كيفية التعامل مع هذا المرض بقوله: "الطَّاعُونَ رِجْرَجٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ".

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض...

وبعد هذا المرض من أهم الأمراض التي أدت إلى تراجع المجتمع الجزائري نظراً لأخطاره الجسيمة⁵⁰، مما أسفر عن وفاة عدد كبير من السكان⁵¹، نستند في ذلك إلى ما ذكره الزباني خلال زيارته للجزائر (تلمسان): "وكان عاماً في العمائر التي بينها (تلمسان) وبين الجزائر. فما نزلنا منزلاً إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم"⁵².

يمكن القول إن السنوات: 1717، 1718، 1723، 1730، 1733، 1778، 1799، 1816، و1822 هي الأكثر انتشاراً لهذا المرض في الجزائر، حيث عانت البلاد من هذا الوباء لمدة 157 عاماً⁵³.

خاتمة:

✓ نتج تذبذب تعداد السكان بين الارتفاع في بداية الحكم العثماني (القرن 16م) والانخفاض لاحقاً، خاصة في القرنين 17 و18، عن خلل في النمو الديموغرافي العام للجزائر، وقد تأثر هذا التذبذب بعوامل طبيعية وبشرية متعددة، منها الحروب والاضطرابات المحلية.

✓ أفضى انتشار الأوبئة، وعلى رأسها الطاعون الذي ضرب الجزائر مرات عدة، أبرزها في سنوات 1620 و1665 و1705، إلى تغيّر واضح في الهرم السكاني، حيث سُجل تراجع كبير في عدد السكان العاملين، خاصة فئة الشباب، مما أثر على التوازن العمري والإنتاجي.

✓ ساهمت الوفيات المرتفعة والنزوح الداخلي، الناتج عن المجاعات والصراعات بين القبائل أو مع السلطات، في انخفاض الكثافة السكانية في عدد من المناطق، خصوصاً الريفية، وهو ما أثر على الاستغلال الأمثل للأراضي الزراعية والموارد الطبيعية.

- ✓ كان للتراجع الديموغرافي انعكاسات مباشرة على النشاط الاقتصادي، خاصة في القطاعات التي تعتمد على اليد العاملة مثل الزراعة والرعي. فقد عانت بعض المناطق من نقص الأيدي العاملة، مما أدى إلى انخفاض الإنتاج وتراجع المبادلات المحلية.
- ✓ أسهم تناقص السكان في إضعاف قدرة المجتمع على التكيف مع الكوارث الطبيعية، مثل الجفاف والفيضانات، والأزمات الاقتصادية، نظرًا لانخفاض العدد وغياب التوازن الداخلي بين الفئات السكانية من حيث العمر والقدرة على العمل.
- ✓ أدت الظروف الصحية والمعيشية القاسية، نتيجة غياب بنية تحتية صحية متطورة، وعدم توفر المياه النظيفة والتغذية المتوازنة، إلى إبطاء عمليات التنمية البشرية والعمرانية، مما جعل الجزائر تعاني من ركود سكاني طويل الأمد حتى نهاية العهد العثماني.

الهوامش:

¹ وُلد في 1 يناير 1772، وأنهى دراسته في عام 1791. في عام 1793، انضم إلى المدرسة العسكرية في مزار برتبة ملازم، حيث كُلف بعدة مهام لخدمة بلاده. وبفضل كفاءته، ترقى إلى رتبة رائد وقاد كتيبة في 28 ديسمبر 1807. في 30 أبريل 1808، تم اختياره لتنفيذ مهمة تجسسية في الجزائر، لكنه توفي على يد الحشاشين في قرية البلاطا. أنظر: زهرة محجوبي، المخططات العسكرية الفرنسية لاحتلال الجزائر (1741م-1830م)، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، مج: 02، ع: 01، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري (الجزائر)، جانفي 2020، ص 103.

² ليلي خيراني، المرأة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني 1818-1830م-دراسة مستقاة من مصادر أرشيفية-، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2012-2013، ص ص 56، 57.

³ عرف علماء النفس الغريزة بأنها "استعداد فطري موروث في الإنسان، لا يتطلب التعلم، ويحفز الكائن على اتخاذ سلوك معين في مواقف محددة، مثل غريزة التملك وغريزة القتال." أنظر: رابح طيبي،

الهجرة غير الشرعية (الحراقة) في الجزائر من خلال الصحافة المكتوبة" دراسة تحليلية لجريدة الشروق اليومي" 1 جانفي 007-31 ديسمبر 007، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في علوم الاعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والاعلام، قسم الاعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 18.

⁴نجوى طوبال، قراءة في التطور الديمغرافي لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة مدارات تاريخية، الجزائر، ج: 03، ع: 01، Cognitive center for studies and research (الجزائر)، مارس 2021، ص 20.

⁵أندريه رمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تر: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 42.

⁶أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، إذ كانت مقسمة إداريا إلى إيالات، والإيالات إلى سناجق، والسناجق إلى أقضية والأقضية إلى نواحي والنواحي إلى قرى. ينظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص 45.

⁷وهو القيد، وقد حدد مدلوله من خلال الاخذ، أي بمعنى الحجز، فالفرد الذي أسر يطلق عليه أسيرا، إذ لم يكن مصطلح الأسر وليد الفترة العثمانية إنما ورد في كتاب الله والأحاديث النبوية فقد طلب الرسول عليه الصلاة والسلام من المسلمين إطلاق سراح أسراهم في قوله: "فَكُونُوا عَالِي-يعني الأسير...". أنظر: عزيزة معطا الله والحاج صادق، الأسرى والمعتقلون المغاربة لدى السلطة العثمانية في الجزائر 1519-1830م "الجزائريون والتونسيون انموذجا"، مجلة المفكر، مج: 05، ع: 02، جامعة الجزائر 2، 2021، ص 255.

⁸حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، ط: 01، 2008، ص ص 167، 168.

⁹نجوى طوبال، المرجع السابق، ص 21.

¹⁰وُلد خير الدين بربروس عام 1470م في جزيرة مدلي ضمن الأرخيبيل، لوالد تركي يُدعى يعقوب بن يوسف ووالدة أندلسية. نشأ نشأة إسلامية قوية، وكلفه أخوه عروج بإدارة جميع مناطق الشرق، حيث اتخذ من دلس مقراً لإقامته وعاصمة للشرق. توفي خير الدين بربروس في عام 1547م. أنظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس (والجهاد في البحر) 1470-1547م، دار النفائس، ط: 01، بيروت، 1970، ص ص 19-27، و عبد الجليل رحموني، العلاقة بين السلطة المركزية والباياليكات في الجزائر

- العثمانية(1520-1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة جيلالي اليابس-سيدي بلعباس، 2019-2020م، ص24.
- ¹¹ رابح كتور، الجيش الإنكشاري في الجزائر بين 1519 و1830، أفكار وآفاق، جامعة الجزائر2-الجزائر، مج: 09، ع:02، جامعة الجزائر2، 2021، ص ص91، 92.
- ¹² علي العبيدي، صفحات من تاريخ الجزائر(الوسيط/الحديث/المعاصر) دراسات تاريخية، ج:1، النشر الجامعي الجديد نشر-طباعة-توزيع، الجزائر، 2020، ص312.
- ¹³ نجوى طوبال، المرجع السابق، ص22.
- ¹⁴ عرف المذهب الحنفي على أنه: "عبارة عن الآراء الإمام أبي حنيفة وأصحابه المجتهدين في المسائل الاجتهادية الفرعية، وتخريجات كبار العلماء من أتباعهم، بناء على قواعدهم وأصولهم، أو قياسا على مسائلهم وفروعهم". ينظر: أحمد بن محمد نصير الدين نقيب، المذهب الحنفي (مراحل وطبقاته، ضوابطه ومصطلحاته، خصائصه ومؤلفاته)، ج:1(معارف أساسية عن المذهب)، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط:1، الرياض، 2001، ص39.
- ¹⁵ أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص141.
- ¹⁶ سماها الأندلسيون البلدة الصغيرة. أنظر: ميروك بن صالح قارة، مسار المدن والعمران بالجزائر دراسات في تاريخ المدن والتركيب السكانية، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، ط:01، الجزائر، 2017، ص 09.
- ¹⁷ عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية-اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص20.
- ¹⁸ نجوى طوبال، المرجع السابق، ص23.
- ¹⁹ كاملية دغموش وحمود بن عمر، الوضع الصحي والمعيشي لبابلك الغرب الجزائري، الحوار المتوسطي، جامعة الجليلي اليابس-سيدي بلعباس، مج:10، ع:02، جوان 2019، ص338.
- ²⁰ عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م (مقاربة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2014-2015م، ص46.

- ²¹ دغموش كاملية وحمدود بن عمر، المرجع السابق، ص 338.
- ²² عرفه الفيروز أبادي بأنه الطاعون، أو أي مرض عام يتسبب في إنتشار الأوبئة. وبالتالي، يمكن القول إن كل طاعون يُعتبر وباءً، لكن ليس كل وباء يُعتبر طاعوناً. بمعنى آخر، يشمل الوباء مجموعة متنوعة من الأمراض، من بينها الطاعون. أنظر، الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص 1725. وبوحجرة عثمان، المرجع السابق، ص 51.
- ²³ صليحة علامة، تاريخ الأوبئة في الجزائر (الطاعون-الجذري-اليفوس-الملاريا)، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، مج: 03، ع: 01، جامعة أبوبكر بلقايد-تلمسان (الجزائر)، جانفي 2015، ص ص 209، 210.
- ²⁴ عبد الجليل رحومني، اهتمامات المجلة الافريقية بتاريخ الجزائر العثمانية (1520م-1830م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2014م-2015، ص 127.
- ²⁵ فلة موساوي القشاعي، وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حداثه وطرق انتقاله، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 01، ع: 01، جامعة الجزائر 2، د-س-ن، ص 145.
- ²⁶ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) ويلييه قانون أسواق مدينة الجزائر، البصائر للنشر والتوزيع، ط: 03، الجزائر، 2012، ص ص 51، 52.
- ²⁷ مؤيد محمود حمد المشهداني وسلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج: 05، ع: 16، جامعة تكرت، نيسان 2013، ص 433.
- ²⁸ أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800م-1830م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2010، ص ص 84، 85.
- ²⁹ نجوى طوبال، المرجع السابق، ص 24.
- ³⁰ فلة موساوي، الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518-1871)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص 52.

³¹سفيان فلاح وحمدادو بن عمر، الأوبئة في الجزائر العثمانية قراءة انثروبولوجية دينية في محتوى المصادر التاريخية، مجلة انثروبولوجية للأديان، جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان، مج:18، ع:01، ص790.

³²عبد الجليل رحموني، المرجع السابق، ص128.

³³محمد بن عثمان الكبير، باي الغرب، عُين بايًّا للولاية الوهرانية وكانت قاعدته في معسكر. كان له اهتمام كبير بالجانب الثقافي، حيث أسس المدرسة المحمدية وعين محمد بن عبد الله الجيلالي مديرًا لها. كما أنشأ المسجد الأعظم، وكان نشطًا في التأليف وتشجيع المؤلفين، إذ لم يقتصر دعمه على الحركة العلمية داخل البلاد فحسب، بل كان يعد طلاب العلم الملتحقين بالأزهر بمساعدات سنوية. شارك محمد بن عثمان الكبير في واقعة الحراش التي وقعت عام 1189 هـ، وقام بطرد الإسبان من وهران. توفي محمد الكبير بعد أيام من فتح وهران، أثناء وصوله إلى السائح بين خضرة كبير وقصير، وعين الداي ابنه عثمان بن محمد الكبير خلفًا له. أنظر: أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح وتق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص ص 65-73 وصالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي**، دار الأمية للنشر والتوزيع، الجزائر 2012، ص173.

³⁴عائشة غطاس، من اجل إعادة النظر في البنية الديمغرافية لمجتمع مدينة الجزائر، معطيات مستقاة من الوثائق المحلية، انسانيات، الجزائر، ع: 19-20، جانفي-جوان 2003، ص39.

³⁵ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) وويليه قانون أسواق مدينة الجزائر**، المرجع السابق، ص ص52، 53.

³⁶أحمد توفيق المدني: **مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب اشرف الجزائر 1168-1246هـ/1754-1830م**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص51.

³⁷عائشة غطاس، المرجع السابق، ص39.

³⁸ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) وويليه قانون أسواق مدينة الجزائر**، المرجع السابق، ص ص52، 53.

³⁹إهتم أدریان بيربروجر بجمع الوثائق والكتب والمخطوطات التي تأثرت بالاستعمار الفرنسي في الجزائر، حيث قام بجمعها من المواقع التي دمرها العسكريون، مثل المساجد والزوايا. استمر في رحلته

عبر الجزائر حتى صدر قرار تأسيس المكتبة العامة في الجزائر العاصمة، حيث تم تعيينه محافظاً عليها في عام 1836. في نفس العام، شغل أيضاً منصب رئيس تحرير جريدة "المُرشد الجزائري (Moniteur Algérien)" وكان كاتباً وأمين سر المارشال كلوزيل، الحاكم العام للجزائر. كما كان من مؤسسي الجمعية التاريخية الجزائرية والمجلة الأفريقية. (La Revue Africaine). أنظر: صديقي بلحاج، المكتبات الجزائرية في القطاع الوهراني خلال الفترة 1830م-1954م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الجزائر الثقافي والتربوي، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2011-2012، ص 37. موسى شماخي إسماعيل ومعتوق جمال وعنصر عبد القادر، دور الرحالة الفرنسيين في تدعيم خلايا الاستعمار في الجزائر، مجلة الخلدونية، جامعة ابن خلدون- تيارت، 11 جانفي 2019، ص 153.

⁴⁰ عبد الجليل رحموني، المرجع السابق، ص 129.

⁴¹ Victor Collardot, Aperçu et Le climat d'Alger et quelques-unes de ses maladies, these présentée et publiquement soutenue à la faculté de médecine de Montpellier le 25 juin 1858, imprimerie. Critin et rue castel-Moton, Montpellier, 1858, p68.

⁴² يذكر محمد الصالح العنتري في كتابه **مجاعات قسنطينة** أنه في سنة 1219هـ 1804-1805 خلال العهد العثماني وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضر بأهل بلد قسنطينة ووطنها ودام الحال لعدة سنوات متوالية وكان الوالي على البلاد عثمان باي. أنظر: صالح العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تح وتق: رايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 27، 28.

⁴³ ناصر الدين سعيدوني، **دراسات في الملكية العقارية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص 369.

⁴⁴ محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 49.

⁴⁵ حمدان بن عثمان خوجة، **اتحاف المنصفين والادباء بمباحث الاحتراز عن الوباء**، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، الشرك الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 68.

⁴⁶ البقرة: الآية 195.

⁴⁷ التوبة: الآية 51.

⁴⁸ الأعراف: الآية 34

⁴⁹ محمد العربي الزبيدي، المرجع السابق، ص ص49، 50.

⁵⁰ عبد الجليل رحومني، المرجع السابق، ص 127.

⁵¹ عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة للنشر والتوزيع، ط:1، الجزائر، 2002، ص107.

⁵² مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص39-48.

⁵³ نجوى طوبال، المرجع السابق، ص24.